النفائس العصرية

مجلة فكاهية ادبية

لمنشئها

خليل بيدس

١ كانون الثاني سنة ١٩٠٩		و١٩ كـ١ سنة ١٩٠٨

الى حضرات المشتركين الكرام

لا حاجة الى الاطناب في بيان ما صادفتهُ هذه المجموعة من سرعة الامتداد والرواج · فقد آنسنا اقبالاً غريباً عليها حتى بلغت في بضعة اسابيع ما لم يبلغهُ كثيرٌ من غيرها في بضعة اشهر او بضع سنين · فنشكر حسن ظن القرآء بنا واقبالهم عليها ونثني الثناء العاطر عَلَى همة وكلائنا لما نرى من موءازرتهم ايانا في هذه الخدمة

وفي هذا المقام نعلن الى عموم القرآء اننا اصدرنا هذه المجموعة باسم « النفائس » وليس لنا علم بالغيب او اطلاع عَلَى خفايا الصدور · وقد قدمنا الى جانب الحكومة المحلية وقتئذٍ عريضة بطلب الرخصة ·

فمضى عَلَى ذلك نحو الشهرين ونحن نعدُ انفسنا بقرب صدور الرخصة الى ان وردنا في الاسبوع الفائت بواسطة الحكومة المحلية بلاغ رسمي من لدن الولاية الجليلة مفاده ان هذا الاسم (النفائس) مختص بغيرنا بموجب رخصة رسمية موجودة في يده · فاصبح هذا الاسم ملكاً شرعياً لهُ ومُلك علينا حق استخدامه مع ان المدّعي لم يصدر الى الان مجلته ولم نرَ في جريدة من الجرائد اعلاناً او اذاعةً بصدور الرخصة الرسمية اليه بامتلاك هذا الاسم · وما كنا يعلم الله لنضنّ عَلَى هذا الاديب بهذه اللفظة لولا ان المجلة اشتهرت الآن بها وذكرتها جميع الجرائد · ولذلك فقد اضفنا الى لفظة (النفائس) التي هي مُلكهُ الشرعي لفظة (العصرية) ليكون لنا نصيب من هذا الملك ·· وحسبنا الله ونعم الوكيل

...

ثم انا حباً بارضاء جمهور القرآء الذين تواترت الينا كتاباتهم في شأن تكبير حجم هذه المجموعة تذرعاً الى التوسع في المباحث الفكاهية والادبية معاً قد عزمنا عَلَى اصدارها من هذا الجزء فما يليه بهيئة مجلة فكاهية ادبية ننشرها مرتين في الشهر كل مرة باربعين صفحة واحياناً باكثر من ذلك بحيث يكون للمشتركين في آخر السنة مجلد ضخم لاتقل صفحاتهُ عن الالف · ونَعدهم أنَّا سنبذل الوسع في ارضائهم بتكثير المباحث واختيار ما يكون منها اجزل فائدة واطيب فكاهةً

واحسن وقعاً . راجين من جميعهم ان يلحظوها بعين الرضى والصفح عما يرونهُ الان فيها من الخلل والعيوب والله المسؤُول ان يأخذ بيدنا للقيام بهذه الخدمة الجليلة انه تعالى وليٌّ التوفيق وهو حسبنا وعليه الاتكال

الحقيقة

(رواية واقعية)

كان الدوق غيانباولو حاكم ايالة مونت فيلترو رجلاً شرس الاخلاق ظالماً عاتياً سفاحاً قد اجتمعت فيه اقبح الصفات وارداُ الخصال . ولم يكن عليهِ آمرٌ في ايالتهُ . فاستعمل ما شآء من المظالم والقسوة واستبدّ بالرعية استبداداً فاحشاً حتى خافه الكبير والصغير وكانوا يرتعدون من مجرد ذكر اسمهِ . ومضى عليه وهو على عرش الايالة ثلاثون سنة ذاق في اثنائها الاهلون اشدُّ النكبات واعظم الويلات ولم يكن احدٌ منهم ليتجرأ على مقاومتهِ او ردعه عن مثل هذه الاعمال الوحشية او حضّ الامة على المروق من طاعته وخلعه لانهُ فضلاً عن كل ذلك لم يكن بالحاكم الشرعي للبلاد بل كان قبل ثلاثين سنة قد اغتصب العرش اغتصاباً بواسطة عصابة شريرة ضمها اليهِ ودخل بها العاصمة عنوةً وقبض على ازمة الاحكام عقيب ان اجرى

الدماء سيولاً

وكان له ابن اخ جميل الصورة دمث الاخلاق حسن الشمائل يقال لهُ غاسطون وهو فى مقتبل العمر ونضارة الشباب · وكان هذا الفتى آية الرصانة والصلاح وحسن السيرة بمقدار ما كان عمه انموذج الشر والرذيلة والفساد · وكان عموم السكان يحبون البرنس غاسطون حباً عظيماً و يرجون علَى يده بعد وفاة عمه الشيخ اصلاحاً ونجاحاً

واذ اراد بعض مستشاري البلاط و كبرآء النبلاء ان يلطفوا شيئاً من شراسة الدوق وفظاظته اقنعوه في بداءة عهد هذه الرواية ان يقترن بفتاة حديثة السن بديعة المحاسن يقال لها فيوردااليزا مع انهُ كان يفوقها سناً اربع مرات · غير ان آمالهم قد (ذبلت) وخابت قبل ذبول الاكليلين اللذين وُضعا علَى راس الدوق وزوجتهِ في حفلة الاكليل · وذلك ان الدوق اراد بعد الاكليل ان يظهر لعروسهِ الجميلة قوته و باسهُو براعته في اساليب المصارعة · فجمع فرسانه وابطاله واخذ ينازلهم واحداً واحداً في ميدان مُعدٍ لمثل ذلك · وكان البرنس غاسطون من جملة الفرسان الاشداء الذين تفتخر بامثالهم البلاد · فما كاد عمهُ ينازل اثنين او ثلاثة من الرجال حتى برز له غاسطون فتجاول واياه بضع دقائق ولم يلبث ان صرعه الى الارض وكاد يُقضى عليه · فتراكض اليه الرجال وانهضوه وعادوا به الى القصر وهو يرغي و يزبد وقد اضمر من تلك الساعة لابن اخيه السوء وجعل

يبحث عن وسيلة للايقاع بهِ

وفي تلك الليلة نفسها حدث في القصر اضطراب عظيم وشاع ان الدوق قد نُمي اليه في تلك الليلة نبأ مكيدة سرية يقصد بها اغتياله لتنصيب ابن اخيه بدلاً منه وان البرنس غاسطون نفسه هو زعيم المتآمرين علَى حياة عمه . ولم ينبثق نور النهار التالي حتى كان قد أُلقي القبض على غاسطون وذويه ممن وقعت عليهم الشبهة وأُودعوا السجن لينالوا عقابهم .

وفي ذلك النهار مرضت الدوقة مرضاً شديداً كاد يودي بحياتها . وقد أوَّل الناس علة مرضها تأويلات شتى . فمنهم من قال انها اوجست خيفةً على حياة زوجها الدوق . ومنهم من ذهب الى ان مرضها كان بسبب القاء القبض على غاسطون لانها كانت فيما مضى تحبه وتهواه الى درجة العبادة . ومنهم من قال انهُ أُمسك وهو في مخدعها . الى غير ذلك من الاقوال والتخمينات التي لم يجزم احد بصحتها

ومضى على هذه الحادثة بضعة ايام شاع في اعقابها ان الدوق مزمع ان يعاقب ابن اخيهِ وسائر المجرمين معه عقاباً أليماً يذيقهم في اثنائه الموت الواناً فحصل من جرَّاء ذلك لغط وخوف شديدان في الشعب لانهم كانوا يحبون غاسطون كما سبق ويعتقدون بان عمه ما أودعه السجن الاَّ تشفياً منهُ لانهُ غلبه في المصارعة

...

وكان في ذلك الزمان قاطناً في مونت فيلترو رجل غريب الديار قيل انه من بلاد الهند . وقد اشتهر بين سكان العاصمة بالوداعة والسكينة والتؤدة ومحامد الخلال . وكان طعامه بسيطاً ولباسه رداء حريرياً ابيض . ولم يكن يشرب خمراً او يذوق لحماً . وكان الجميع يعتبرونه ويحبونه ويجلونهُ كثيراً

فلما وقعت للدوق الحادثة المذكورة امر باستدعاء هذا الرجل الغريب ليأخذ منه فتوى بقتل ابن اخيه ليس لانهُ كان بحاجة الى مثل هذه الفتوى بل ليتنصل من تبعة عمله ويكون في حلٍ من غضب الشعب عليهِ وكان آملاً بان هذا الرجل الدرويش سيؤخذ باقواله وينخدع بهباته السنية فيقنع الناس بصحة الحكم على البرنس ويبرهن لهم استحقاقه لعقاب الموت

ولما مثل الهنديُّ بين يدي الدوق قام له الدوق فتحفّى به واجلسه الى جانبهِ وهو يبش في وجهه ثم قال : اني على يقين بان بلادك هي مستودع العلوم والحكمة وانك تطوي في صدرك كثيراً من الاسرار والغوامض والمعارف ولذلك فقد استدعيتك الان لاعرض عليك مودتي واغمرك بنعمتي فسل ما تشاء بشرط ان ترشدني الى اشدّ انواع العذاب والتنكيل لانتقم بها من مجرم كبير قصد اغتيالي واهلاكي وتدنيس شرفي

فنظر الهندي الى الدوق طويلاً ثم قال لهُ بمنتهى السكينة

والوقار : ارى ان تصفح لهُ وتتركه تحت ثقل وطأة تقريع الضمير واضطراب الذمة

ولم يكن الدوق ينتظر مثل هذا الكلام فذهل شديداً وجحظت عيناه وقال — ماذا تقول ايها الرجل؟ أفي يقظة انتَ ام في منام؟ فاعلم ان ابن اخي قد تآمر علَى قتلي ولم يكتفِ بذلك بل احتقر شيبتي وازدرى بهيبتي ودنس شرفي وتطاول علَى عرضي ونغّص حياتي فلن ارتاح قبل ان أنتقم منه انتقاماً عجيباً لم يُسمع بمثله . وقد بحثت عن اشد وسائل التنكيل والعذاب فلم ارَ واحدة ترضيني فاستدعيتك لتدلني علَى افظع الميتات لاعاقبهُ بها علَى قحتهِ وجسارته

فقال الهندي — انك ايها الدوق لن تجد طريقة للانتقام ترضي نفسك افضل من الصفح والعفو هذا اذا افترضنا صحة قولك وصدق ظنك وزد علَى ذلك، فالجريمة اذا وقعت لن تقدر ان تزيلها او تغطيها . فلا يبقى والحالة هذه الا الصفح وهو احسن طرق الانتقام واشدّ ذرائع التنكيل بعدوّك

قال — نعم اني لا أستطيع ان امحو الجريمة اذا وقعت او ازيلها عن وجه الارض . اما المجرم فيجب ان يناله العقاب جزاء ماجنت يداه . وعقابه منوط بكلمة اقولها او اشارة ابديها

قال — ليس ذلك بصحيح

قال — انا غيانباولو دوق مونت فيلترو . أفلا اقدر ان اجرّع

عدوي كاس الموت وهو في قبضة يدي ..

قال ــ نعم نعم لا تقدر . ولا احد يقدر ان يفعل ذلك ولو كان اعظم سلاطين الارض واشدّ سفّاحي العالم

فزمجر الدوق واتقدت عيناه فاخذ قنديلاً عن المائدة التي امامه وضرب به الارض بشدة فحطمه ثم قال ــ اقسم بشرفي اني في هذه الساعة وامام عينيك سأُذيق غاسطون الموت الزوءام والاشي حياته في اسرع من رجفة العين كما حطمت الان هذا القنديل واطفات نوره الى الابد

فضحك الهندي وقال ــ انت حطمت القنديل ولكنك لم تلاشِ النور الذي ينبعث من القناديل امثاله في كل مكان . وبناءً عليه فانت لا تقدر ان تقتل خصمك وتلاشيه عن وجه الارض فما خصمك الا انت نفسك

قال ــ انت تهذي ايها الرجل الغريب الاطوار

قال الحقيقة ليست بهذيان ايها الدوق . وليس بذي عقل من يسميها هذياناً . فخصمك هو ابن اخيك واخوك وابوك وزوجتك وانت نفسك

فامتلأ الملك غضباً وقال . كان عندي مشعوذ ماهر في صناعته وقد مات منذ ايام فلم أُبكهِ او اتأسف عليه لانه كان يضجرني في المدة الاخيرة بشعوذته الباردة ونكاته الفارغة خلافاً

لعوائده السابقة وارى الان انك تناسب ان تشغل وظيفته في بلاطي لانك عَلى جانب عظيم من المهارة والحذق في هذا الفن المضحك · فانا حسب زعمك غاسطون بعينه وانا اذًا دبرت المكيدة لاغتيال نفسي وانا دخلت مخدع الدوقة خلسةً · ولم يبقَ لي الا ان انتقم من نفسي واجعل عنقي في حبل المشنقة بسبب هذه الجريمة الفظيعة

قال انت لم تفقه كلامي ايها الدوق · فاعلم ان الجريمة ليس بممكنٍ ملاشاتها ولو لاشيت الجنس البشري بتمامه لانه كله مجرم · فالجريمة متى وقعت ثبتت وليس في قوات الارض ما يمحوها

فاطرق الدوق مفكرًا · واستتلى الهنديُّ كلامه قائلاً : تذكر ايها الدوق انك كنت جالساً ذات يوم في قصرك ومن حولك الاعيان والاشراف وامامك رجل غريب كان يطربك بقصائده واخباره عن الملك اسكندر المكدوني · اما انا فقد كنتُ وقتئذٍ واقفاً في باب القصر لا لاسمع تلك القصص والحكايات بل لادرس ظواهرك واستدل بها عَلى بواطنك

قال نعم اني اذكر ذلك

قال فالان اسألك : لماذا صعد الدم الى وجهك لما ذكر المنشد واقعة اسكندر في غرانيكا ؟ ولماذا دمعت عيناك لما ذكر عن مروءته ومعاملته لاسرة الملك داريوس · ولماذا اكفهرَّ وجهك حينما ذكر موت كليت السكير ؟ ولا ريب ان كل ذلك قد حدث لك لانك انت بعينك هو

بطل هذه الروايات والوقائع

فتململ الدوق في مكانه وقال فاذاً انا هو اسكندر المكدوني٠

قال نعم

قال وانا ايضاً كليت السكير

قال نعم

قال أأنا الملك اسكندر الكبير وكليت السكير والبرنس غاسطون المجرم والدوق غيانباولو ؟

قال نعم نعم انت هم

فهاج الدم في راس الدوق والقى نظراً حاداً في وجه الهندي وقال سبحان الله ما اكثر فهمك٠ كنت اظنك اغزر مادة واوفر حكمة فساء فألي فما انت الا مشعوذ ماهر وفكِهٌ مطرب للغاية او انك فاقد العقل

قال مهلاً ايها الدوق فلا تتسرع في حكمك بل اصغ اليَّ٠ انك كنت تسمع انشاد المنشد وانت في غاية التأثر والاعجاب بمروءة اسكندر الكبير وبسالته٠ فلو لم تكن فيك صفات اسكندر لما فهمت النشيد الذي سمعتهُ٠ ان في حياة كل انسان ايها المولى حوادث قليلة ولكن معارف البشر بوجه العموم تضم معارف جميع الاحياء والاموات٠ انت تفهم جميع الاعمال والاجراءات التي تحدث في الكون ولو لم تجرها قط في حياتك٠ فأنى لك ان تفقه كل ذلك إن لم تكن انت كل شيء

وفيك كل شيء. أنظر الى احب الاشخاص اليك، فهو انت وانت هو لا محالة

وكان الدوق صامتاً مطرقاً يسمع بتمام الانتباه والدهشة وقد تمثلت لهُ خواطر غريبة وتبددت عبوسة وجهه ولكنهُ ظل صامتاً استماعاً لبقية الحديث. ومضى الهنديُّ في حديثهِ فقال: ان شريعتكم تعلم ان جميع الناس اخوة. هذه الكلمة عظيمة ولكنكم لا تفهمونها كما يجب. لانه اذا كان اخوك يغضبك وانت تقتله فقد بطل الاخاء. وكتابكم المقدس نفسهُ يبتدىءُ من قتل الاخ لاخيه. فاذاً انتم نسل القتلة. غير ان الحقيقة التي لامراء فيها هي ان الناس جميعهم واحد وكل فرد من المجتمع البشري هو نفس المجتمع كله. ولا جريمة امام الله الا ولها عقابها. فاذا رفعتَ يدك على عدوك تريد الانتقام منهُ فتكون قد رفعتها علَى نفسك لانك واياه واحد. واذا رايت عدوك يتعذب فانت ايضاً تتعذب. اما اذا كنت تفرح لعذابه ففرحك هذا وقتي فقط لا يلبث ان يضمحل ويستيقظ فيك الشعور بآلامه واحزانه. واعلم ايها الدوق ان الانسان الحكيم اذا نظر دائماً الى الامور نظراً فلسفياً محضاً تهون لديه كل مصيبة ولا هو يحزن. انا اعلم تاريخ الدوقة وتاريخ البرنس غاسطون. فقد كانا يحبان بعضهما حباً مفرطاً وكان كلٌّ منهما يحيا بالاخر فقط وقد تعاهدا علَى دوام المحبة والولاء ووعد كلٌّ منهما الاخر ان لايحول عن هواه ولو اعترضتهُ قوات

الارض • فحبهما لبعضهما عادل من كل وجه • غير انك باستبدادك ومطلق تصرّفك قد فرَّقت بينهما واتخذت فيوردااليزا زوجةً لك فكسرت بذلك قلبها وقلب حبيبها • وهذا ظلم ظاهر • ان فيوردااليزا لاتحبك بل تستعيذ بالله منك لانها لم تُخلق لك ولكنها خُلقت لغاسطون فباي حق تريد ان تستأثر بها انت ؟ انظر ايها الدوق اليها فقد ذبل ورد خديها وامست عَلَى شفا الخطر لانها آلت ان لا تسلم نفسها اليك وهي قد اغتنمت فرصة الهياج في القصر يوم صرعك غاسطون فاستدعتهُ الى مخدعها لتطيب قلبهُ الكسير وتصبره على هذه البلوى وتودعهُ الوداع الابدي لانها عزمت عَلَى قطع حبل حياتها بيدها • ولما رايتهُ انت في مخدعها قامت قيامتك ونسبت اليهِ المكيدة واودعته السجن واردت قتلهُ الى غير ذلك مما خطر لك وانت بغير طورك الانساني • ولكنك لو تأملت في هذه الحادثة قليلاً لجزمت بانك انت المخطىء • ان غاسطون بريء وفيورداليزا بريئة ايضاً وانها تليق به وليس بك لان قلبها لهُ وليس لك • فهل تلومها على ذلك • ان غاسطون الان يتعذب في داخل سجنه وينتظر الموت في كل دقيقة • فكن انت عادلاً وأَزل كربهُ وافرج عنهُ واعتذر اليه وتنازل لهُ عن فيوردااليزا وحينئذٍ تشعر بانك انسان وهذه الضبابة التي تغشي نفسك الان تنقشع حالاً ويكون غاسطون عبداً لك مدى الحياة • ان الرعية تمقتك الان وتريدان تتخلص منك ومن شرورك ولكنك باحسانك الى

غاسطون تجعلها ان تنسى سيئاتك الماضية فتحبك وتفتخر بك

ولما فرغ الهندي من كلامه رفع الدوق نظره اليه ثم تنفس الصعداء · وقال — قد غلبتني يا ابن الشرق فلست ادري الان ماذا اقول · ان الاضطراب الذي كان مستحوذاً علي قد خف الان كثيراً واشرق امامي نور غير اعتيادي فلا شك ان التقادير ارسلتك الي لتسري عني همومي وتنير بصيرتي

فاشرق وجه الهندي طرباً وقال — وهذا النور هو الحقيقة ايها الدوق

قال — نعم اني ارى الحقيقة الان بكل ضيائها وتلك الحياة التي قضيتها فيما مضى وكنت احسبها نعيماً لا اراها الان الا برقاً خلباً وسراباً غراراً · فبورك فيك يا ابن الشرق لانك قد كشفت لي القناع عن الحقيقة العظيمة التي تحيا بها الخلائق · فاريد الان ان اترك كل شيء عالمي واتبع الحقيقة · اريد ان اعتزل كل نخفخة الملك واسير في نور الحق · وحسبي اني كنت الى هذا الوقت رجلاً بذيئاً وحاكماً مستبداً لا اخاف الله ولا اهاب انساناً وقد اتبعت اهوائي فلم اعبأ بحرمة احد مع ان هذه السلطة التي استأثرتُ بها كل هذه السنين الطوال ليست لي بل انا اختلستها اختلاساً فهي بعدل يجب ان تكون لغاسطون لانهُ احق مني بها كما انهُ احق بفيوردليزا · والان وقد وضحت لي الحقيقة برونقها وبهائها فلا اريد بعد ان استأثر بما ليس

لي . فعلمني وارشدني ايها الرجل الحكيم الى ما يجب فعله

قال — افعل انت ما تراه عدلاً وغداً اعود اليك

. . .

ولما خرج الهندي قام الدوق فخرج من قصره وذهب تواً الى السجن فاخرج منه البرنس غاسطون وعانقهُ واعتذر اليه ثم عاد بهِ الى القصر والناس ينظرون اليهِ ولا يفقهون معنى هذا الانقلاب الغريب ولكنهم سروا بالافراج عن البرنس وملاطفة الدوق لهُ

ولما وصل الدوق الى القصر استدعى حالاً فيوردا ليزا وقال لها مشيراً الى غاسطون — هذا حبيبكِ قد عاد اليك فخذيهِ وانعمي بالاً وقرّي به عيناً

فلما سمع غاسطون وفيوردا ليزا هذا الكلام اصابهما نوعٌ من الذهول فلم يدركا شيئاً سوى انهما اكبَّا على قدمي الدوق بدون ان يفوها بكلمة ودموع الفرح تنهمل من مآقيهما بغزارة

وفي ثاني الايام عاد الهندي الى الدوق فالفاه جالساً والى جانبيهِ غاسطون وفيوردا ليزا فحياهم وقال للدوق كيف تشعر الان يامولاي ؟

قال — اشعر باني قد امتلكت السعادة باسرها ولكني طامع في ما هو أسمى منها

قال — وفي اي شيءٍ انت تطمع الان

قال — قد آليت ان احيا للحقيقة فقط

قال — اترك مملكتك واتبعني فقد استوفيت حظك من دنياك وقرت عينك بابن اخيك

قال — نعم وسا كون طيب الخاطر مسرور الفوءاد لان هذا هو العدل بعينه

...

وكان بعد ايام ان الدوق غيانباولو اجلس ابن اخيه غاسطون عَلَى سرير ايالة مونت فيلترو في احتفال عظيم وخرج هو خلسة من القصر فلم يعد احد من سكان العاصمة يعرف عنهُ او عن الدرويش الهندي شيئاً وعاش الدوق غاسطون بعد ذلك مع زوجته الدوقة فيوردا ليزا بتمام السعادة والسلام الى ان فرّق بينهما داعي الحِمام

الكلام ام الصمت

سبحان من انزل الشرع على قلوب اوليائه الكرام ودعمَ جانب العدل بصحة الحجة المنزهة عن الملام واقامَ لكل مقام مقالاً وهو الحكيم العليم فاق جلالاً وسما كمالاً . اما بعد فمن المعلوم ان لكل من الكلام والصمت مقاماً يحسن فيه الكلام و يقبح الصمت ومقاماً يقبح فيه الكلام و يحسن الصمت ولا ينظر الى المثل السائر الكلام فضة والسكوت ذهب . فان الكلام في بعض الاوقات اذا راعى الشروط

كان ذهباً بل يفوق الذهب في حين ان الصمت يكون غشاً فاضحاً وعجزاً واضحاً . وللكلام اربعة شروط لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها . الاول ان يكون الكلام لداعٍ يدعو اليه اما في اجتناب نفع او في دفع ضرر . والثاني ان ياتي به في موقعه ويتوخى به اصابة فرصة . والثالث ان ياتي منهُ عَلَى قدر الحاجة . والرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به . فهذه الشروط الاربعة ان روعيت يسلم بها المتكلم من الزلل وان اخلَّ بواحدة منها فيصير كحاطب ليلٍ ودونك تعليلاً لكل شرط . فاما الشرط الاول وهو الداعي الى الكلام فان ما لا داعي لهُ هذيان . وما لا سبب لهُ هجرٌ ومن سامح نفسهُ في الكلام اذا عنّ له ذلك ولم يرع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قولهُ مرذولاً . كالذي كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الاحنف فقال لهُ تكلم يا ابن اخي . فقال يا عم لو ان رجلاً سقط من شرف هذا المسجد هل يصيبهُ شيء . فقال يا ابن اخي ليتنا تركناك مستوراً . وحكي عن ابي يوسف الفقيهِ ان رجلاً كان يسامرهُ وهو صامت قال لهُ يوماً ابو يوسف الا تسأل عن شيء تجد فيهِ سعادتك . قال بلى متى يفطر الصائم . اجابهُ عند غروب الشمس . فسأَلهُ الرجل : واذا لم تغرب الى نصف الليل . فتبسم ابو يوسف وتمثل بقول الشاعر

عجبتُ لاعجاب الغبيّ بنفسهِ وصمت الذي قد كان بالعلم اعلما

وفي الصمت سترٌ للغبي وانما صحيفة لبِ المرء ان يتكلما

فقد اعرب هذان بالكلام عن جهلهما واباناً نقصهما حيث لم يكن لهما داعٍ ولا روية فيما يتكلمان . فلو كانت لهما الروية ووجدا الداعي لسلما من عيبهِ وشينه . الشرط الثاني : وهو ان يوءتى بالكلام في موضعه فان الكلام في غير موضعه لا ينتفعُ به ذلك هو الهذيان والهجر . فان قدم ما يقتضي تأخيره كان عجلة لا يفهمهُ السامع . وان أخّر ما يقتضي تقديمهُ كان توانياً وعجزاً لان لكلٍ مقام مقالاً وقد قال الشاعر

تضع الحديث عَلَى مواضعه وكلامها من بعدها نزرُ

والثالث ان يقتصر من الكلام عَلَى قدر الحاجة فان لم ينحصر الكلام في الحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا اقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصوراً كان حسراً ان قصر . وان كثر فهذراً . حكي ان بعض الحكماء راى رجلاً يكثر الكلام ويقلُّ السكوت فقال لهُ الله تعالى خلقَ لك اذنين ليكون ما تسمعهُ ضعف ما تتكلم به . الشرط الرابع اختيار اللفظ الذي يتكلم به لأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فلزمَ ان يكون بتهذيب الفاظه حرياً وبتقويم لسانه ملياً . فان الانسان لولا لسانهُ لكان بهيمة مهملة او صورة ممثله فكان يستدل عَلَى عقل الرجل بقوله وعَلَي اصله بفعله . وقد لا يتسنى اختيار

الالفاظ الا لمن درس اللغة باصولها وتعلم الفصاحة بجذافيرها والبلاغة بتمامها حتى يتدرب بها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معانٍ مفردة ولا لالفاظها غاية وانما تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني بلاغة. واختيار الالفاظ يكون منزهاً عن الغلاظة الجاهلية . مترفعة عن الحطة العامية مناسبة المعاني كاثواب لمرتديها . اما المقامات التي يحسن فيها الكلام والصمت فيها عارٌ او خسارةٌ او موتٌ والكلام جاهٌ او ربح او حياةٌ ما ذكرَ عن عفو المعتصم بالله عن تميم الخارجي فانهُ بعد ان اجتمع الناس ليشهدوا نقف عنقه فنصبت الكراسي للملك ووزرائه. مرّ تميم امامهم غير هياب ولا وجل فاخذت المعتصم به رأفةٌ وقد اعجبهُ جريهُ الى الموت بشجاعة . فقال لهُ المعتصم اعتذر ياتميم عن نفسك فنطقَ بكلام دعا الملك الى العفو والصفح فكان في كلامهِ حياة لهُ ونجاة من حد السيف. اجل ان الكلام في هذا المقام ذهب والصمت عارٌ وموت. ودونك ما نقلهُ الرواة عن قصة ابن الحجام وابن الفوال في ايام الحجاج وهي ان الحجاج أَمر حرسهُ ان يطوفوا ليلاً فمن رأوه بعد العشاء ضربوا عنقه فطافوا ليلةً فوجدوا رجلين يتمايلان وعليهما اثر الشراب وقد احاط بهما الغلمان . فقال لهما زعيم الحرس من انتما حتى خالفتما امر الامير وخرجتما في مثل هذا الوقت فقال احدهما

انا ابن من لا تنزل الدهر قدرهُ   وان نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس افواجاً الى ضوء ناره   فمنهم قيامٌ حولها وقعود

فامسك عن قتلهما وقال لعلهما من اشراف العرب واحتفظ بهما فلما اصبح رفع امرهما الى الحجاج فاحضرهما وكشف عن امرهما فاذا الاول ابن حجام والثاني ابن فوال فعجب من فصاحتهما وقال لجلسائه علموا اولادكم الادب فبالحق الصراح لولا فصاحتهما لضربت عنقيهما . ارأيتم قراءنا الكرام ما اجملَ الكلام في مثل هذه المواقف . ومما يجمل في الكلام اذا كان محاماةً عن دعوى ودفع تهمة وتأييد حق ما هذا مثاله: حكي ان شيخاً مسناً تنافس مع غلام فوشي بهما الى الحاكم فلما مثلا امامهُ وبسط كل دعواه اهان الشيخ الغلام فاجابهُ بالمثل . فاشار اليه الحاكم ان اصمت . فاجاب الغلام ان سكتُّ فمن ينطق بدعواي فما اصوب كلام هذا الغلام وما اقنعهُ . اما الصمتُ فخير من الكلام اذا كان الكلام يجرُّ العار علَى قائلهِ مثل كلام الخشونة والشتم والسباب وكذلك في مجالس الرؤساء والشيوخ فان الادب لا يأذن لاتباعهم ان يجلسوا ويتكلموا امامهم لان في ذلك رائحة المساواة بين التابع والمتبوع . فتلك يا أُولي الفطن خطة ينبغي لكل انسانٍ عاقل ان يسير فيها ويراعي شروطها ليكون جديراً بان ينسب قول الشاعر اليه

تحكم وسدد ما استطعت فانما   كلامك حيٌّ والسكوت جمالُ

فان لم تجد قولاً سديداً تقولهُ فصمتك من غير السداد كمال

الخوري باسيليوس خرياطي

البوسنه والهرسك

موقع هاتين المقاطعتين في الجهة الشمالية الغربية من شبه جزيرة البلقان يحدهما شمالاً نهر ساوا الفاصل بين البوسنه واملاك اوستريا. وشرقاً نهر درينا وجنوباً وشرقاً سربيا القديمة وجنوباً الجبل الاسود وغرباً جبال دينار وهي الفاصلة بينهما وبين مقاطعة دالماسيا · اما البوسنه فهي بلاد خصيبة كثيرة المياه والاحراش بخلاف الهرسك فانها بلاد قاحلة وعرة قليلة المياه والخيرات

ويبلغ عدد سكان هاتين المقاطعتين نحو مليون و٨٠٠ الف من النفوس منهم نحو خمسمئة الف من المسلمين ومئتي الف من المسيحيين الكاثوليك والباقون ارثوذكس وجميعهم يتكلمون باللغة الصربية · والمسلمون في هذين البلدين متسلسلون من الاهلين انفسهم الذين اعتنقوا الدين الاسلامي بعد سنة ١٤٦٣ وهي السنة التي حارب فيها السلطان محمد الثاني بلاد البوسنه واخضعها

اما العلوم والمعارف في البوسنه والهرسك ففي حالة يرثى لها وليس للحكومة فيها مدارس قط وانما هناك بضع عشرات من المدارس

الابتدائية ومدرسة متوسطة واحدة ٠

والاهلون هنا يشبهون كل الشبه جيرانهم الصقالبة لانهم منهم فهم طوال القامات اشداء جميلو المنظر موصوفون بكرم الضيافة ومحبة العيال والشجاعة وحب القتال والتدّين والصدق وحب الانتقام ويكتفون بالشيء القليل من الماكولات البسيطة كالحليب والجبن والذرة والارز واللحم والبصل والثوم

واكثر اراضي الهرسك للمسلمين من السكان واكثر الفلاحين فيها يشتغلون بالاجرة او الاستئجار من اصحابها ولهذا السبب ترى كثيراً من الاراضي متروكاً بلا فائدة واكثر مزروعاتهم الحنطة والشعير والذرة والفول والتبغ والفجل واشهر فواكههم الخوخ والاجاص والتفاح والجوز والكستنا والعنب ٠ ومعوّل غنى الاهلين عَلَى تربية المواشي

وفي جبال هذه البلاد معادن كثيرة غنية بالحديد والنحاس والفحم الحجري والزئبق والملح الحجري وهذه المعادن مشهورة فيها منذ عهد الرومانيين غير ان الاهالي الان لايستفيدون منها شيئاً وانما هم كآلة متحركة في ايدي اصحاب الثروة من النمساويين

واكثر صادرات البوسنه والهرسك المواشي والصوف والاثمار والحديد والاسلحة والخشب واكثر وارداتها الانسجة الكتانية والبضائع الاستعمارية والسكر وغير ذلك

وبندر تجارتهما مدينة سارايفو وهي عاصمة البوسنه ٠ وفي

اكثر المدن يمدون الان الاسلاك التلغرافية ويمهدون طرق المواصلات تسهيلاً لنمو التجارة ورواجها

اسماء الاستانة

لعاصمة السلطنة العثمانية اسماء عديدة وهي:

بوزنطية — نسبة الى موءسسها بيزاس الذي شادها ومعهُ جماعة من الميغاريين والارغيين وذلك سنة ٦٦٧ قبل المسيح

القسطنطينية — نسبة الى الامبراطور قسطنطين الكبير الذي جعل فيها عرش المملكة الرومانية سنة ٣٣٠م ودعاها (رومية الجديدة) بيدَ ان اهلها اكراماً لمنشئها العظيم وتخليداً لاسمه سموها قسطنطينية

فروق — كذا سماها العرب في صدر الاسلام لموقعها الفارق بين قارتي اوروبا واسيا او بين البحرين الاسود والابيض

اسطنبول او استمبول او اسلامبول — وكلها مشتقة من لفظة يونانية اصلها استنبولين ومعناها (الى المدينة) وقد اطلق اليونان هذه التسمية عليها سنة ١٤٥٣ م اي على اثر الفتح العثماني . اما اسلامبول فهي محرّفة عن اسطنبول وليس المراد منها مدينة الاسلام كما زعم البعض

دار السعادة — كذا سماها العثمانيون تفاوءلاً وتيمناً

دار الخلافة — لانها حاضرة السلطنة العثمانية ومقر الخلفاء وهم سلاطين آل عثمان العظام

الاستانة العلية — وهو اسمها الفارسي ومعناه العاصمة او البلدة او العتبة او السراي

وكلها تشير الى انها كرسي المملكة وملجأها

تهنئة

العام الجديد — ١٩٠٩

نتقدم الى حضرات القرآء الكرام بمراسم التهنئة بدخول العام الجديد. جعله الله عاماً مباركاً سعيداً وأعاده عليهم كافةً ادواراً عديدة بالخير والهناء وهم يودعون عاماً ويستقبلون آخر بمنه تعالى وكرمه

عيد الاضحى

نهنئ اخواننا المسلمين كافةً بعيد الاضحى المبارك ونسال الله ان يعيده عليهم بالسعد والهناء

ونرجو الجميع ان تنوب لديهم تهنئتنا هنا عن الزيارة او المراسلة ولحضراتهم المنة والفضل

﴿ آثار ادبيَّة ﴾

حديقة الاخبار

قد عادت الحديقة بعد احتجابها نحو عامين وقد كانت في مقدمة الجرائد التي عُرفت بصحة الرواية وخدمة الدولة والوطن انشأها المرحوم فقيد الصحافة العربية المغفور لهُ خليل افندي الخوري في اول كانون الثاني سنة ١٨٥٨ وكانت اول جريدة صدرت في سوريا وقد « خدمت اربعة سلاطين من آل عثمان العظام وكانت ترجماناً لكبار رجال الدولة مثل رشيد وعالي وفوءاد ومدحت ». وها انها قد عادت الان الى اشراقها متيمنة بطالع هذا العصر السعيد وجاءتنا الاعداد الاولى منها حافلة بكل نوع من المقالات والنبذ الرائقة والاخبار الصحيحة الشائقة بهمة صاحبيها الفاضلين حنا افندي ووديع افندي الخوري شقيقي فقيدها وفقيد البلاد السورية جمعاء. وهي يومية سياسية اخلاقية تصدر في بيروت وقيمة اشتراكها السنوي ١٥ فرنكاً في بيروت و٢٠ في سائر البلاد. فنحن نرحب بهذه الجريدة الحسناء ونثني عَلَى صاحبيهـا الفاضلين الثناء الطيب لِما اخذا عَلَى نفسيهما من احياء هذا الاثر النفيس ونرجو لجريدتهما كل رواج وانتشار

﴿ شقاء الملوك ﴾

(تابع لما قبل)

قال ان رفيقيَّ سيفعلان ما انا فاعل · وها هما فسيجاوبان عن انفسهما

فالتفت سرج فرأى رجلين يدنوان منهما · فقال له باكن — لي الشرف ان اقدّم اليك رفيقيَّ اكسيل ريجور وماكس غراوب · ثم قال لرفيقيه — وأعرّفكما بصديقي الجديد سرج طورد

فلما سمع الرجلان هذا الاسم ظهرت عليهما لوائح القلق والاضطراب ولكنهما لم يلبثا ان عادا الى سكينتهما فتصافحا مع سرج ولم يزيدا

فقال باكن انني قد اخبرت المستر سرج اننا نريد الدخول في جمعيته الاشتراكية وضمنت لهُ رغبتكما في ذلك فماذا تقولان؟

فأجابا ليكن كما تشاء

فقال سرج للثلاثة — ولي الثقة التامة بانكم ستنضمون الينا بملء الحرية وتمام الرضى والاخلاص واذا حاول احد منكم خداعنا فالويل لهُ اذ ليس لهُ مهرب من العقاب الشديد المعد لمثل هذه الخيانة

فقال باكن انا اضمن لك حسن مقاصدنا وليس لك الا ان تثق بكلامي لاني شديد الحرص عَلَى القيام بوعدي

قال — اذا كان ذلك كما تقول فهيا بنا

ثم سار امامهم وهم يتبعونه حتى اذا وصل الى باب المنزل الذي كان يقصده اخرج من جيبه مفتاحاً ففتح به الباب ودخل الثلاثة في اثره!

الفصل السابع عشر

قانون الجمعية

ثم رقي سرج سلماً عالياً وباكن ورفيقاه يتبعونه فيه · وكانت الظلمة سائدة في ذلك المكان بحيث لم يرَ احد شيئاً امامه · فكانوا يتلمسون الدرجات تلمساً بايديهم · وفي اثناء ذلك قال ماكس غراوب باللغة النمساوية بصوت لم يسمعه سرج : ما هذا الكهف الجهنمي الذي يقودنا اليه هذا الرجل ! غير ان باكن اسرَّ اليه كلاماً اسكته · واخيراً وصلوا الى باب كبير ففتحه سرج ودخل ودخل الثلاثة وراءه الى ردهة كبيرة منارة بمصباحين كبيرين معلقين في السقف فوق مائدة كبيرة في الوسط جلس اليها نحو عشرين رجلاً وفي جملتهم جان سيغوتا الذي كان واقفاً مع سرج في ساحة الكنيسة كما مرَّ ذلك

فلما دخل سرج وقف الجميع فحياهم وحيوه باشارة اليد اليسرى وكان في الردهة غير هؤلاء امراة جالسة في احدى النوافذ وقد حوَّلت ظهرها الى الحضور ولم تقف لسرج وكانت ملتفة بدثار اسود طويل لم يظهر منه الا جانب من عنقها الابيض وبعض شعرها

الاشقر . فلما رآها باكن لروا لم يتمالك ان همس لرفيقيه (وما شان هذه الامراة هنا ؟ اني اشعر ان هذه المأساة ستكون لذيذة جدا) . غير ان رفيقيه لم يكترثا لكلامه لانهما كانا غائصين في لجة عميقة من الافكار المتضاربة

ولما سكنت الحركة قال سرج للحضور : ايها الاصحاب والاخوان اني اقدّم اليكم الان ثلاثة رفاق جدد لم ابحث عنهم ولم ادعهم الينا وانما هم طلبوني وسألوني ان نأذن لهم بالانخراط في سلك اعضاء جمعيتنا وعليه فلتجر بحقهم المعاملات القانونية وهم يخبرونكم عن اسمائهم واستعدادهم

فقال جان سيغوتا — نحن نسرّ بكل قادم الينا بشرط ان يكون عازماً على الاخلاص في الخدمة والامانة للجمعية

ثم جلس سرج الى راس المائدة وجلس جان بازائه وقد فتح كتاباً كبيراً امامه واخذ قلماً وقال للغرباء — تفضلوا ايها الاخوان بالاجوبة السديدة على المسائل التي نلقيها عليكم . فاقترب الثلاثة الى المائدة . فسالهم جان ان يذكروا اسماءهم وجنسيتهم . فقال باكن — اسمي باكن لروا واما جنسيتي فقد ولدتُ عبداً . ولعلكم تتعجبون من كلامي وتقولون ان العبيد انما هم سود البشرة فاقول لكم بصراحة ان في الكون بلاداً كثيرة يشتري الناس فيها بعضهم بعضاً مع ان الجميع من دم واحد ولون واحد ويرغمونهم الى الشغل والكد بعد ان يقيدوهم في

موضع واحد ويستبدوا بهم حتى النسمة الاخيرة من حياتهم. فانا احد هوءلاء العبيد المكبَّلين وقد كسرت الان قيودي وفررت. فارجوكم ان تقبلوا شرحي الى هذا الحد ولا تزيدوا في السوءال.

فدهش جان ونظر الى سرج مستفهماً. فقال له سرج سل غيره

فالتفت جان الى اكسيل ريجور وقال — وهل انت ايضاً عبدٌ كرفيقك ؟

فاجاب بعد ان ذكر اسمه — كلا فانا قد ولدت حراً في بلادي

وقال ماكس واما انا فمساوي التبعة اشتراكي المذهب وعدوٌّ لجميع الملوك والمتسلطين

ولما كتب جان اقوال هولاء الثلاثة قال لهم سرج — الان يُطلب منكم ان تقسموا لنا عَلَى الامانة والاخلاص ولكني اقرأ لكم قبل هذا قانون جمعيتنا الذي تضطرون الى الخضوع لهُ. ولما قال هذا اخذ عن المائدة كتاباً ففتحه وقرأ ما يأتي: نحن اعضاء الجمعية الثوروية قد ارتبطنا مع بعضنا ارتباطاً دائماً وعزمنا العزم الثابت عَلَى ان نضحي جميع قوانا لمقاومة الشر واستئصال جراثيم الاستبداد ورفع الظلم عن الامة بقدر ما يتاح لنا ذلك. فعلينا اولاً — ان نقاوم كل شريعة جائرة تضغط عَلَى حرية العقل والضمير او النفس البشرية. ثانياً — نقسم ان نقوم في وجهِ كل ضريبة يُقصد بها هضم حقوق الفقراء والفعلة وتحميلهم من الاثقال ما هو فوق طاقتهم. ثالثاً

نعترض على كل رجل اكليريكي يتداخل في شوءون المملكة ابعض غايات ومآرب . رابعاً نقاوم كل تداخل اجنبي يُقصد به احتكار بعض انواع التجارة او الصناعة الوطنية . خامساً نقوم ضد كل صاحب معمل او تجارة يستخدم في ادارته رجالاً اجانب بدلاً من الوطنيين ونعتبره نذلاً وخائناً للوطن . سادساً نقسم ان نلاشي الحكومة الحالية لانها غير اهل للتدبير وان نستبدلها بحكومة اخرى يُنتخب اعضاوءها بالتصويت العام من جميع اطراف المملكة بشرط ان تكون الانتخابات بملء الحرية بلا دسيسة ولا رشوة . سابعاً نخطب جهاراً في تقبيح المراياة والخيانة والخديعة والدناءة المتصف بها كاتم اسرار الدولة كارلوس بيروس . ثامناً نمهد طريقة الحكم الجمهوري لتصبح مملكتنا جمهورية

ولما قرأ سرج ذلك قال للاعضاء الجدد : هذه اهم قوانيننا ويتبعها قوانين اخرى ستطلعون عليها بعد ذلك لانها في الدرجة الثانية واسمعوا الان فأتلو عليكم بعض قواعد لا بد من معرفتها لكل عضو جديد فاولاً : عَلَى كل فرد من افراد اعضاء الجمعية الثوروية ان يقسم عَلَى الامانة والاخلاص للجمعية وان يكتم كل سر يتعلق بها و بخدمته لها . ثانياً — عَلَى اعضاء الجمعية ان يجتمعوا مرة كل شهر في المكان الذي يعينه الرئيس وفي هذه الاجتماعات يتباحث الاعضاء في شوءون مختلفة تتعلق بالجمعية واجراءاتها و يُفرض عَلَى الاعضاء بالقرعة اعمال

يضطرون الى انفاذها . ثالثاً — لاعضاء الجمعية ملء الحرية في السفر والاقامة وليس عليهم ان يظهروا عناوينهم او ما كان من هذا القبيل . رابعاً — ولكن عليهم ان يؤدوا المعلومات اللازمة للجمعية في اجتماعاتها القانونية . وكل عضو لا يحضر الاجتماعات المعينة ولا يوضح سبب غيابه او امتناعه عن الحضور شفاهاً او كتابة يعتبر خائناً وتجري في حقه المعاملات المقتضاة . خامساً — اذا فُرض عَلَى احد الاعضاء تنفيذ امر مهم فيه خطر شديد على حياته وكان في وسع بعض الرفاق مساعدته او اسعافهُ بشيء فيتحتم عليهم ان لا يتاخروا عن ذلك .

ولما فرغ سرج من القراءة رفع نظره وقال لباكن ها قد سمعتم قوانين جمعيتنا فهل انتم مستعدون ان تقسموا

فقال باكن عن نفسه وعن رفيقيه — بلا شك فنحن عَلَى اتم الاستعداد

الفصل الثامن عشر

لوطيس

فالتفت حينئذٍ سرج الى الامراة الجالسة في النافذة ونادى بصوت جهوري : لوطيس !

وللحال نهضت المراة المشار اليها فالقت عنها دثارها واستقبلت الجمهور بوجهها فرأى اصحابنا الثلاثـة جمالاً رائعاً وقداً بديعاً وهيئةً مهيبةً ذات ابهة وشان

وباشارة اخرى من سرج وثبت لوطيس نحو المائدة وقد أشهرت بيدها خنجراً بديعاً · فاختلج اكسيل وماكس وكادا يبادران الى المدافعة عن رفيقهما · فشعر سرج بشيء من ذلك وتبسم ثم قال لهم — تفضلوا وضعوا ايديكم عَلَى حد هذ الخنجر وانا اتلو امامكم كلمات القسم وارجوكم ان تكرروها بصوت مرتفع · ولما فعلوا كما اشار قال : « اني اقسم بالله وفي حضرة لوطيس ان اخدم بكل امانة الجمعية الثوروية واتمم سائر مطالبها واوامرها واذا خالفتُ ذلك او حنثتُ بقسمي فليصعقني الموت ولتلعني السماء والارض »

ولما تلا الثلاثـة كلمات هذا القسم نظرت اليهم لوطيس ببشاشة ثم كشفت عن ذراعها اليسرى فجرحتها قليلاً براس الخنجر وقالت لسرج ناولهم الان قلماً ليكتب كلٌّ منهُ اسمه بالدم في قائمة اسماء الاعضاء · ولما تناول باكن منه القلم ارتعش قليلاً ولكنهُ عاد للحال الى وقاره فغمسها في الدم وكتب اسمه (باكن لروا) وقال للوطيس — لم اكتب بعد بمثل هذا الحبر ولكني فعلت ذلك الان حسب امركِ

فقالت — وهذا الحبر سيوءيد قسمك الى الابد

فتبسم وناول القلم لماكس غراوب فكتب هذا اسمه وقال — ان اسمي ايتها السيدة قد رُقم الان بواسطتك بكلمات الحياة

فقالت ـ اصبت ٠ وخيانةٌ واحدة تجعلهُ ان يُرقم بكلمات الموت

ولما جاء دور اكسيل تقدم فتناول القلم وكتب اسمه بسرعة واضطراب ٠ فهمست لوطيس له ـ انت تفعل هذا اضطراراً لانك مقيَّد بارادة غيرك ولكني انصح لك ان تظلّ خاضعاً لها دائماً

فدهش اكسيل ونظر اليها بملء الاستغراب ٠ اما هي فتحوَّلت عنه وعصبت يدها بمنديل وارخت عليها الرداء ثم عادت فالتفتت الى الثلاثة وقالت ـ انتم الان قد اصبحتم في عداد ابناء دمي لانكم ارتبطتم بي وصرتم لي ٠ ثم مشت الى راس المائدة فجلست ودعت باكن لروا ورفيقيه ان يجلسوا بازائها ففعلوا ثم اشارت الى الجميع فجلسوا وجلس سرج الى طرف المائدة الآخر قبالة لوطيس ولم يلبثوا ان دخلوا عباب الحديث فتحدثوا عن حفلة النهار وعن الملك والجزويت ومقابلة سرج لباكن وهو يقرأ الجريدة عَلَى ضوء مصباح الشارع وعن امور اخرى عديدة

وبعد حصة من الزمن فُتح الباب ودخل منه رجل احدب الظهر وقد حمل بين يديه صينية الشراب فوضعها عَلَى المائدة وهمَّ بالانصراف ٠ فاستوقفه احد الحضور المدعو بول زوش بقوله ـ اين بكيتا الصغيرة ياشولتو ٠ فاني لم ارها منذ ايام وقد املت ان احظى

بمشاهدتها في هذا المساء فلماذا لم تحضر ؟ فقال شولتو — انها الان نائمة لانها عادت من الملعب منحطة القوى · قال سيأتي وقت حينما لا تستطيع ان تجد الى النوم سبيلاً فنرى ما سيكون من امرها في سن الخامسة عشرة · فقالت لوطيس — انها بهذه السن تترك الملعب وتأوي اليّ فلا تعود تتمكن من مشاهدتها يا مستر بول الا نادراً جداً · ثم التفتت الى الاحدب وقالت أتمنى لك ليلة سعيدة يا شولتو اذهب انت ايضاً ونم · فشكرها شولتو وانصرف الى غرفته

فقال بول للوطيس — عسى ان لا اكون قد اغضبتك ايتها السيدة بحديثي مع شولتو · فتبسمت لوطيس وقالت لا انك لم تغضبني ولكنني شعرت بانك قد احزنت هذا الرجل بسؤالك اياه عن ابنته بمثل تلك النغمة · قال اما انا فلم انوِ تكديره وليس لي مصلحة في ذلك · فالتفتت حينئذٍ لوطيس الى باكن لروا ورفيقيه وقالت ان شولتو هذا الذي رأيتموه الان هو من الاسر الانكليزية العريقة وبما انهُ ولد احدب كرههُ ابوه مفضلاً عنهُ اخاه الاصغر لانهُ كان صحيح الجسم جميل الصورة · فترك حينئذٍ شولتو بيت ابيه ولم يعد اليه قط · وكان قد ترك ثيابهُ على شاطىء بعض الانهار المجاورة ليوهم اهلهُ انهُ غرق في النهر وهو يسبح · فآلت تركة ابيه وهي ما لا يحصى من المال والعقار الى اخيهِ الاصغر · اما هو فلم يحزن عليهِ احد من ذويهِ · وكان شولتو في اثناء ذلك قد ركب مركباً اسبانياً وسافر

الى كاديكس حيث وجد لنفسه شغلاً وتزوج فتاة اسبانيـة جميلة الصورة احبها واحبته. ولكن داعي الحِمام لم يتركهما بلذة الحياة طويلاً فماتت المراة عَلَى اثر الولادة وبقي شولتو مع طفلته المولودة وهـذه الطفلة هي بكيتا التي سأل عنها منذ هنيهة المستر بول فعمرها الان احدى عشرة سنة وهي تشتغل مع جوقة من ممثلي الروايات في احد ملاعب العاصمة وقد فتنت الكثيرين برقصها وغنائها مع انها حديثة السن. اما راتبها الان فهو زهيد بالنسبة الى مهارتها ولكنّ اباها يتأمل ان تشتهر بهذا الفن

فقال بول — ولكن قيّم الملعب قد وعدها بزيادة راتبها بحيث يصير كرواتب مشاهير الممثلين وابوها مسرور جداً بذلك. فقال لهُ جان سيغوتا وهو يتبسم — وهل انت مسرور ايضاً يا بول. قال لا ولو كنت مسروراً لما رأيتني هنا

فقال اكسيل — فاذاً لم تكن جمعيتكم هذه الا نتيجة عدم الرضى والسرور

فقال بول اصبتَ لان عدم الرضى هو مولّد كل حضارة وتمدن والتاريخ اكبر شاهد عَلَى كلامي. فهذا آدم ابو البشر كان يشعر بعدم رضاه في جنائن الفردوس ولكنهُ بعدان طُرد منه وجد العالم بكامله

فقال جان — لا تنسَ انه اخذ معهُ ايضاً حواء ليزيل عن نفسه

المرض والكآبة فبدونها لم يكن للحضارة معنى

فقال ماكس اما انا فأزعم ان المؤسس الاول للحضارة هو قايين لانه بعد ان قدم واخاه هابيل الضحايا لله علم ان دخان المحرقة يسر الله فزعم ان رائحة دم اخيه قد تسر الله ايضاً وهذا ما حمله عَلَى قتل اخيه بدلاً من الخروف. وقد كان ذلك الخطوة الاولى في سبيل الحضارة

فضحك الجميع لدى سماع هذا الكلام الاّ سرج فانه كان غارقاً في لجة تأملاتهِ وقد حنى راسه عَلَى صدره فنادته لوطيس فلم ينتبه الى ندائها فقالت اتركوه فهو الان في غير عالمنا. بيد ان بول القى يده عَلَى كتفه وقال ما بالك صامتاً ياسرج. دع الان عنك كل الافكار وهيا بنا نشرب نخب رفاقنا الجدد. فانتبه سرج وقال اظنني سمعتكم تتحدثون عن قايين وهابيل

فقال ماكس نعم وقد اردت ان اقنع الحضور بان رائحة الدم كانت تسر الله كما نرى ذلك مفصلاً في التوراة. فما رأيك.

قال منذ البدء كان قايين وهابيل والى الان نرى هذه الحادثة تتكرّر في جميع بلاد الله. فالاخ ضد اخيه والدماء تجري كالانهار. وكل ذلك لاجل بعض دريهمات او تذرُّعاً الى نيل بعض السلطة والجاه او لغير ذلك من الاهواء

فقالت لوطيس حسن فلنشرب الان نخب رفاقنا الجدد. فأترع

الجميع اكوابهم ونهض سرج فقال نعم لنشرب نخبهم ونجدد آمالنا بثباتهم وبأسهم في ساعة الشدّة

ولما فرغ الجميع اترع باكن كاسهُ ثم وقف فقال والان فاسمحوا لي ايها الاخوة ان اشرب نخبكم واقول في موضوع جمعيتكم خطاباً وجيزاً اوضح لكم فيه رأيي لتكونوا علَى بيّنة من امري

واذ قال هذا نظر اليه رفيقاه بمنتهى الدهشة والاستغراب وقد بانت علَى وجهيهما علائم الخوف والقلق · فلحظت ذلك لوطيس فتبسمت وقالت قل ما شئتَ فكلنا آذان صاغية

الفصل التاسع عشر

الخطاب

فانتصب باكن واجال نظره في وجوه الحضور ثم قال :

ايها الاصدقاء والاخوة يصعب عليَّ وانا لم اجرب قوة هذه الكلمات (حرية مساواة اخاء) قبل هذا المساء ان اجد كلاماً يقوم بحاسّة الشكر التي اشعر بها وقد استقبلتموني بتلك العواطف الكريمة وقبلتموني في جملة اعضاء جمعيتكم دون ان تختبروا آرائي وتسبروا غور قلبي · اجل ان عملكم هذا لهو عملٌ انسانيٌ محض كما ان خدمتكم هي خدمة وطنية شريفة جداً · واي خدمة اشرف من مناهضة الاقوياء

والمدافعة عن الضعفاء · تلك كانت اعمال المشترعين العظام الذين وجدوا على الارض وعلموا الناس المحبة والاخاء والمساواة ولكنهم مع ما أوتوه من القوة والحجة لم يفلحوا كثيراً في اقتلاع جراثيم الشرّ من النوع الانساني فان الاقوياء والمتسلطين والقساة ما زالوا يضغطون عَلَى اخوتهم في الانسانية ويسومونهم من الاثقال ما لا يطيقون حمله حتى ان نوّاب هولاء المشترعين وخلفاءهم لم يشاءوا ان يسيروا في الخطة المثلى بل نراهم عَلَى الدوام يسعون وراء المجد والفخر والمال وغير ذلك مما لا ينال الا بالقوة والحيلة والخداع

ولما وقال الخطيب ذلك دوى تصفيق الايدي من جميع الحضور مما دل على شديد ارتياحهم لكلامه · اما هو فاستتلى قائلا

واني ليتفطر قلبي حزناً حينما اتأمل اعمال خلفاء هولاء المشترعين الكبار فهم قد حرّفوا تعاليم معلميهم باوهامهم واكاذيبهم وتسلطوا على العقول الضعيفة بخرافات وترّهات واباطيل لا تحصى · فالمشترعون قد جاءوا الى الارض و بشروا الناس ببشائر المحبة والوئام اما نوابهم فيبشرون الناس ببشائر البغض والانقسام · ولو ان المشترعين عادوا مرة اخرى الى الارض ونظروا الى هذه الاعمال المغائرة لقوّضوا بايديهم جميع المعابد وقالوا لخلفائهم (اننا لا نعرفكم اذهبوا عنا يا فاعلي الاثم)

ولما كانت هذه المفاسد قد ملأُت الدنيا باسرها فعلى الناس انفسهم ان ينهضوا ضدها و يحاربوا كل كذب وخداع وظلم واستبداد

ولو لم ينجحوا في بادىء الامر النجاح المرغوب . ولكن اكثر الناس لسوء الحظ لا يهمهم الا الغنى ولم يبق الا افراد منهم يرون هذه المطالب هامة جداً وقد قاموا يهتمون بالفقراء والضعفاء ويسعون في كبح جماح الاهواء والفجور والضرب على ايدي المنافقين البغاة وفي عزمهم ان ينشروا راية العدل والانصاف والسلام بين الجميع . ونحن ايها الاخوان من جملة هولاء الافراد وقد اقسمنا على الامانة في هذه الخدمة الشريفة . فنريد ان نناهض كل سياسة تعضدها الرشوة والخديعة . نريد ان نقوم في وجه كل اصحاب الامر والنهي الذين لا يهمهم الا تعبئة صناديقهم بالاصفر الرنان وتحميل الامة لاجل ذلك اثقل الضرائب واشد الهوان . واذا راينا ان الملك يمالىء مثل هولاء المتسلطين ولا يلتفت الى احوال رعيته ومصالحها فيجب ان نقوم كلنا يداً واحدة لخلعهِ او اهلاكه

ومن تأمل في هذه اللحظة علامات القلق والذعر التي بدت في وجوه اكسيل وماكس لدهش واستغرب ولم يفقه ما تطويه صدورهما غير ان الحضور كانوا جامدين في مقاعدهم شاخصين في الخطيب مصغين لكلماته لئلا يفوتهم منها شيء اما باكن فتنفس قليلاً ثم قال

واخالكم تتعجبون كثيراً اذا قلتُ لكم اني اكره الملك الحالي لسبب اخر خصوصي وهو ان بيني وبينهُ مشابهة كلية في الوجه والقامة كأنني واياه اخوان توأمان . فالذي ارجوه منكم ان تتفرسوا جيداً

في وجهي لتدرسوا ملامحي وتذكروها في المستقبل لئلا تخطئوا المرمى . فأنا الان رفيقكم ولا اريد قط ان تعتبروني عدوكم لشدة الشبه بيننا

ولما قال هذا انتصب ورفع راسه بانفة . فصاح الجميع من الدهشة حتى ان سرج نفسهُ انحنى الى الامام وهو يحدق فيه بمزيد الاستغراب اما لوطيس فنظرت اليه باشد انتباه وقد شعرت في تلك اللحظة بخفقان شديد في قلبها ولم تتمالك ان قالت — نعم فأنت شبيه بالملك من كل وجه . وقال سرج بالمعجب وهل انت من ذوي قرابته؟

فضحك باكن وقال لا ولو كان للملك اولاد غير شرعيين فانا لستُ من جملتهم ولكن يكفي ان تعلموا اني ولئن كنت شبيهاً به غير اني احتقره وامقته

فقال سرج وهو لا يزال يتفرس فيه بملء عينيهِ ولولا الخوف من ان أُنعت بنقص العقل لقلت انك هو هو لامحالة ولا اكتمك انهُ يعزُّ عليَّ جداً ان ارى هذه المشابهة بينك وبين هذا الاحمق المكابر

فلما سمع ماكس ذلك نظر الى سرج شذراً ثم لم يلبث ان تحول بنظره عنهُ دون ان ينتبه اليه احد

اما باكن فقال والان فاسمحوا لي قبل ان افرغ من خطابي ان

اشكركم على ترحيبكم بي وبرفيقي" واعلموا اني افتخر مذ الان بكوني احد افراد هذه الجمعية الكريمة واعدكم باني ساقوم لكم بخدم باهرة تثبت لكم صحة عزيمتي وصدق نيتي واخلاصي لمبادئكم. وساشرع من الغد بالعمل واقدر الان ان أبشركم بانهُ لا يأتي موعد الاجتماع القادم الا" واكون قد فعلت كثيراً لاجل كف" سلطة كارلوس بيروس كاتم اسرار الدولة

فلما سمع سرج ذلك انتفض واتسعت حدقتاه وقال — اعمل هذا وان وفقت فسنخدمك بارواحنا ولو كنت شبيهاً بالملك الف مرة

وللحال ارتجت جوانب الردهة من شدة التصفيق وقام الجميع فاحاطوا بيا كن وهم يوءملون على يده كل نجاح . فقال لهم ولكني ارجوكم قبل كل شيء ان تعرفوني بخيانة هذا الذي تدعونه كاتم اسرار الدولة لاني غريب ولم اطلع بعد على شيء مما يهم العموم

فقال بول — الحق معك ولكن ارى ياصاح ان المهمة التي اخترتها لهي صعبة جداً ودون تتميها خرط القتاد لانه لاجل القيام بها ينبغي لك ان تتعرّف اولاً بكبير الوزراء ثم ان تقيد لخدمتك احدى الجرائد الكبرى ولاسيما المشايعة لهُ والاكثر شيوعاً بين الامة كجرائد داود يوسف اليهودي الذي لا يخفاه شيء من اسرار كبير الوزراء وكاتم اسرار الدولة. واعلم ايها الصديق باننا اذا رايناك فائزاً في هذه القضية